الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْدْ

برنـامج هـل تعرفـني؟

محمـود سامـي البارودي

مؤثرات موسيقيـة.........

أنا مِنْ مَعْشَرٍ كِرامٍ عَلَى الدَّهْرِ   أَفَادُوهُ عِزَّةً وَصَلاحًا

عَمَرُوا الأَرْضَ مُدَّةً ثُمَّ زَالُوا   مِثْلَمَا زَالَتْ القُرُونُ اجْتياحًا

بهذين البيتين من الشعر، وقد نظمتُهما في مستهل حياتي، يسرّني أن أقدّم نفسي إليكم. وفي يقيني أنّني لا أتجنّى على أحد ولا أقول غير الحق حين أفاخر بآبائي الصيّد وأسرتي الكريمة. فقد أفادوني عزة وصلاحاً لأنّهم عمَروا الأرض وأنبتوا الزرع وشاركوا في صنع الحياة ثمّ انتهوا كما ينتهي صاحب كلّ بداية.

وكان من قضاء الله وقدره أن أولد في كنف والديّ ثمّ أتيتّم حين أبلغ السابعة من عمري. فليس كاليُتم شدّة تُبتلى بها نفس الطفل وتصلّب بها روح الفتى الطامح إلى المعالي.

لقد غاب عنّي والدي كما تغيب الشمس، ولكن بعد أن ترك في حياتي من تراث روحه وأخلاقه جملة من الكواكب والنجوم كتلك التي تتركها الشمس بعد المغيب.

ضربة موسيقيـــــة.....

- ولا أخفي عليكم أنّني نشأت في طبقة من المجتمع المصري أعدّتها ظروفها في القرن التاسع عشر للانخراط في الجندية. فلم أكد أنهي دراستي الابتدائية على أيدي معلّمين يتردّدون عليّ في المنزل، وقد بلغت الثانية عشرة من عمري، حتى التحقتُ بالمدرسة الحربية مع أمثالي من أبناء الجراكسة والأتراك وأبناء الطبقة الحاكمة. نسيتُ أن أقول لكم أنّني من مواليد عام 1838م ومن أسرة جركسية الأصول.
- وفي عام 1854م وقد بلغت السادسة عشر من عمري تخرّجت من المدرسة الحربية برتبة ضابط في عهد عباس الأول.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضـان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

- وكان من مصادفات القدر أنّ عباساً هذا من أعداء النهضة، خمدت حماسة الجيش في عهده وسرّح عدد كبير من الضباط وأقفرت ميادين القتال من ألوية المقاتلين. ثمّ عقبه عهد سعيد فلم يكن خيراً منه بل لعلّه فاقه في تثبيط الهمم وتحطيم الطموح عند الأجيال الطالعة.

ضربة موسيقية.....

- وكان شأني شأن غيري من الضباط الذين لم يعودوا يجدون في الجيش أرتبهم. فساءنا ما سرّ غيرنا من الضباط اللذين وجدوا في نعمة الوظيفة ما يُغنيهم عن طلب الرزق في ميادين أخرى، وما يوفّر لهم الجاه العريض. وهنا وجّهت وجهي شطر التاريخ. عكفت على كتبه ودواوينه الأدبية ومصادر المعرفة فيه دارساً منقّباً ألتهم ما أجده فيها التهاماً، لا سيّما وأنّني قد بدأت أحسّ بملكة الفن الشعري تجتاحني. وقد راقني من شعر الأقدمين فنون الحماسة والفخر ووصف ميادين القتال وبطولات الأبطال. وهذا لا يعني أنّني أهملت الصور الأخرى من التجربة الإنسانية، فلقد تتبّعتُ ما في أدبنا العربي القديم، ما فيه من تصوير للحياة حلوها ومرّها، وأعجِبتُ بفنون الغزل والحكمة والفكاهة والرثاء. وتحرّكت نفسي لقول الشعر فأقدمتُ على نظمه لا تردّني عنه التقاليد الرجعية السخيفة لطبقة الحاكمين آنذاك. وقلت في هذا المعنى:

تَكَلَّمَتُ كَالْماضينَ قَبلي بِمَا جَرَتْ بِهِ عادَةُ الإنسانِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَلَا يَعْتَمِدِني بِالْإِساءَةِ غافِلٌ فَلَا بُدَّ لِابنِ الأَيْكِ أَنْ يَتَرَنَّمَا

ضربة موسيقية.....

- ثمّ كُتبَ لي في لوح القدر أن أغادرَ مصر إلى الآستانة، وأن أجد في وزارة خارجية السلطنة العثمانية وظيفة لي. فاهتبلت فرصة وجودي في العاصمة لأدرس التركية والفارسية وقراءة آدابها. وقد فعلت وأتقنت اللغتين، حتى صرت أنظم فيهما شعراً كما أنظم في العربية. وعدتُ إلى مصر كرّة أخرى وقد شدّني إليها الحنين والتحقتُ بحاشية الخديوي، وبقيتُ أترقّى في مراتب الجيش حتى أصبحت برتبة "قائمقام". كلّ ذلك وأنا أديم القراءة والكتابة وأتتبّع مصادر الأدب والمعرفة حتى جدّدت لغتي العربية وأدركت منها ما لم يدركه الكثيرون من أدباء العربية وشعرائها آنذاك. وكم كانت سعادتي غامرة بما تحقّق لي من هذه المكاسب. ثمّ رأيتُ أن أساعد المتأدّبين من بعدي على اختيار أجمل الشعر وأقومه وأجدره بالحفظ والرواية، فوضعتُ مختارات شعرية لثلاثين شاعراً عباسياً طُبِعت بعد وفاتي.

ضربة موسيقية.....

- وشاء القدر ألّا يحرمني من تجارب القتال فجاءت حرب جزيرة كريت فرصة طيبة رافقت فيها الحملة المصرية التي أسهمت مع الجيش التركي في إخماد ثورة أهل الجزيرة. وفي عام 1878 أعلنت القيصرية الروسية حربها على السلطنة العثمانية فما أسرع ما التحقتُ بالحملة المصرية التي ساعدت جيش الخليفة في مقاومة العدو. وقد أبليتُ في المعارك بلاء حسناً فارتفع قدري وأنعمَ عليّ برتبة "لواء" وبعدد من الأوسمة. والحقّ أنّني أفدتُ من حياتي العسكرية العاملة فوائد جمّة يأتي في مقدّمتها تذوّقي لجمال الطبيعة وروعة محاسنها، أولاً في جزيرة كريت وثانياً في حرب البلقان. لقد كانت الجبال والوديان والسهول والأجواء المحيطة بها بمثابة الينبوع الذي لا ينضب معينه من فنون الألوان والأحاسيس، بالإضافة إلى الجماعات البشرية التي لقيتها حيث حللت ووجدت فيها ثروة حافلة بكلّ جديد من صور الحياة البشرية.

ضربة موسيقيـــــة....

- ثمّ عدتُ إلى مصر لأجد الدنيا أمامي حالية بالجاه العريض، والطريق تحت قدمي مفروشة بالورود، والقصور مفتوحة تستقبلني محافظاً للعاصمة ووزيراً للأوقاف، وأخيراً رئيساً للوزارة. وقد ساءني أن يقف الحاكم ضد الشعب، وأن يسأم الناس الخسف وتنزل بهم الشدائد، فما تردّدت في الوقوف إلى جانبهم، وأدركت أنّ مصيري الذي اخترته معهم هو الذي يجب أن أختاره مهما تكن نتائج هذا الاختيار. فإذا كان عام 1882م وأعلنت ثورة عرابي حاولت تبصير قادتها بالأخطار المحدقة بهم ولكنّ الدنيا سارت على غير ما كنت أحبّ فقد سبق السيف العزل بعد أن ربطت مصيري بأحرار مصر ورجالها الأبرار. وكانت حروب ثمّ محاكمات ثم الإدانة والنفي إلى سرنديب إحدى الجزر الهندية.

ضربة موسيقية.....

- قضيتُ في المنفى سبعة عشر عاماً كانت من أقسى فترات حياتي، حُرِمتُ فيها متعة العيش في الوطن، وجاءتني الهموم من كلّ مكان، وامتصّ السجن حياتي قطرة قطرة، فمرضتُ وكفّ بصري وضعف سمعي ووهن جسدي. وكان ممّا قلته وقد قلتُ شيئاً كثيراً جداً في تلك الأيام:

كَيْفَ لَا أَنْدُبُ الشَّبابَ وَقَدْ أَصْبَحَتُ كَهْلًا فِي مِحْنَةٍ وَاغْتِراب

أخلقَ الشَّيْبُ جدَّتِي وَكَساني خِلْعَةً مِنْهُ رَثَّةَ الجِلْبابِ

وَلْوَى شعرُ حاجِبِيَّ عَلَى عَيْنِي حَتَّى أَطَلّ كالهِدابِ

لَا أَرَى الْشيَّ حِينَ يَسْنَحُ إِلَّا كَخَيالٍ كَأَنَّنِي فِي ضَباب

وإذا مَا دُعيَتْ حُرتُ كَأَنِّي أَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ وَراءِ حِجابِ

كُلَّمَا رُمتُ نَهْضَةً أَقْعَدَتْنِي وَنية لَا تُقِلُّها أَعْصَابِي

لَمْ تَدَعْ صَوْلَةُ الحَوادِثِ مِنِّي غَيْرَ أَشْلاءِ هِمّةٍ فِي ثِيَابِي

ثمّ زاد الطين بلّة وتضاعف بؤسي حين تخطّف الموت ابنتي وزوجتي وصحابي واحداً وراء الآخر، فكان ذلك بمثابة طلق الرحمة الذي استسلمت فيه لليأس.

ضربة موسيقية...

- وفي عام 1900م صدر العفو عن المنفيّين وقد كنتُ بالطبع واحداً منهم فعدتُ إلى مصر أشبه بالرمّة البالية، وقد نظمتُ بالمناسبة قصيدتي المشهورة التي مطلعها:
- أبابل مرأى العين أم هذه مصر؟ فإنّي أرى فيها عيوناً هي السحر

ثمّ لم تمهلني المنيّة فأسلمتُ الروح في شوال سنة 1322 هـ - ديسمبر سنة 1904 م. وبينما كنت أستعدّ للموت أستقبلُه كمَن يستقبلُ صباح حرّيته مرّت في ذاكرتي صور شعرية فتذكّرت معها قول الشاعر "ولابدّ دون الشهدِ من إبرِ النّحلِ"، فقد والله حفلَت بي الحياة وأعطتني كثيراً ممّا كنتُ أطمح إليه. أوَلم أكن في دنياي أبحثُ عن الذُّرى؟ أوَلم أطأ بقدمي أكثر من ذروة؟ وكم يسعدني أن أردّد هنا وأنا أختم ترجمة حياتي أبياتاً قلتها في هذا المعنى:

لَهِجٌ بِالْحُرُوبِ لَا يَأْلَفُ الخَفْضَ وَلَا يَصْحَبُ الفَتاةَ الرَداحا

مِسْعَرٌ لِلْوَغَى أَخُو غَدَواتٍ تَجْعَلُ الأَرْضَ مَأْتَمًا وَصياحًا

لَا يُرَى عاتِبًا عَلَى شيَمِ الدَّهْرِ وَلَا عابِئًا وَلَا مِزاحًا

يَفْعَلُ الفِعْلَةَ الَّتِي تُبْهِرُ النّاسَ وَتَرْنو لَهَا العُيونَ طماحًا

ضربة موسيقية.....

- هل عرفتموني بعد تقديم نفسي في هذه الترجمة؟ لعلّكم أو لعلّ أكثركم قد عرفني حقاً. ولكنّ هذا لا يمنع من أن أقول شيئاً فيما خلّفت من الشعر. أنا لا ابالغ إن قلت بأنّ شعري هو الجسر الذي ربط بين أمجاد عربية الأمس وأطماح عربية اليوم. إنّ في ديواني الشعريّ الذي طبعت منه أكثر قصائده حتى قافية الكاف وبقيت منه أجزاء لم تُطبع حتى اليوم صورة الشاعر الذي انقادت له لغته وشرفت عبارته وتردّدت قصائده أناشيد شجيّة النغم جميلة الشدو قوية الأسر. لقد أحيا ديواني ما درس من شعر العمالقة من شعراء العباسيين والأمويين بل والجاهليين.. فبه وصل ما انقطع وبإسهامه عادت العربية متحرّرة من قيود التقليد وتفاهة الصنعة وقحولة الفكر. لقد برز شعري نقيضاً لشعر الندماء من أمثال علي أبي النصر وعلي الليثي..

ضربة موسيقية.....

- وأنا لا أزعم بالطبع أنّني قد لحقت بركب العصر وأنّني قد أدخلت من فنون القول عند الغربيين وأساليبهم ما يقفز بالشعر العربي إلى مرحلة الشعر العالمي المعاصر لزمني. ولكنّني أزعم أنّني قوّمت لغة الشعر وأعدتُ إليها رونقها وحيويتها وصلابتها. فلا قلق في نظمي ولا اضطراب في ألفاظي ولا تعقيد في فكري. بل هو موكب من الفن يسير بخطوات ثابتة فيها فتوة العربية وجلالها وشرفها في عصورها الذهبية الماضية. فجاء شعري كما قلت:

لَمْ تُبْنَ قَافِيَةٌ فِيهِ عَلَى خَلَلٍ كَلَّا وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي رَصْفِهَا الْجُمَلُ

فَلا سِنَادٌ وَلا حَشْوٌ وَلا قَلَقٌ وَلا سُقُوطٌ وَلا سَهْوٌ وَلا عِلَلُ

تَغَايَرَتْ فِيهِ أَسْمَاعٌ وَأَفْئِدَةٌ فَكُلُّ نَادٍ عُكَاظٌ حِينَ يُرْتَجَلُ

لا تُنْكِرُ الْكَاعِبُ الْحَسْنَاءُ مَنْطِقَهُ وَلا يُعَادُ عَلَى قَوْمٍ فَيُبْتَذَلُ

ضربة موسيقية.....

- وممّا يلفت النظر أنّني نظمت الشعر في أكثر الفنون التي عرفها الشعر العربي القديم. ولا سيّما الفخر والوصف والحكمة والهجاء والرثاء وقليل من المديح.
- فإذا كنتُ قد فخرت وفاخرت سواي من الناس فلأنّني أؤمن بأنّ قيمة الفرد ما يحسنه، ولا عيب في أن يعتزّ الفرد بما حقّقه من الأشياء الحسنة. بل لعلّ الاعتزاز أن يكون الضمانة الكبرى لاستمرار العمل الحسن وتشجيع غير المحسنين على الإحسان.

- وفيما يلي نموذج من هذه المفاخرات. قلتُ في قومي:

لَهُمْ عُمُدٌ مَرْفُوعةٌ ، وَمَعاقِلٌ ... وألوِيةٌ حُمرٌ ، وأفنيَةٌ خُضرُ

وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ ... لِمُدَّرِعِ الظَّلْمَاءِ أَلْسِنَةٌ حُمْرُ

ضربة موسيقية.....

- يبقى أن أقدّم إليكم لمسات أخرى قليلة أحقّق بها الغاية من هذا التعريف فأقول لكم: إنّ إنسانية الشاعر تبدو في كلّ فنّ من فنون شعره المنظوم، ولكنّ هذا لا يمنعنا من تصنيف الفنون الشعرية في ضوء قدرتها الذاتية على تصوير التجربة البشرية. ففي الرثاء الصادق مثلاً من حوافز التأثر ما لا يتوفّر في الوصف. ولذلك فإنّني في ضوء هذا التصنيف أعتبر الفخر والرثاء مقدّمين على كلّ فنّ آخر. أمّا الفخر فقد استشهدت له في الفقرة السابقة. وأمّا الرثاء فقد رثيتُ به من هم أقرب الناس إليّ: ولدي وزوجتي وابنتاي. ومَن لا تتفطر كبده حين يفتقد الوطن والزوجة والأولاد. قلت:

كَيْفَ طَوَتْكَ الْمَنُونُ يَا وَلَدِي

وَكَيْفَ أَوْدَعْتُكَ الثَّرَى بِيَدِي

وَا كَبِدِي يَا عَلِيُّ بَعْدَكَلَوْ

كَانَتْ تَبُلُّ الْغَلِيلَ وَا كَبِدِي

فَقْدُكَ سَلَّ الْعِظَامَ مِنِّي وَرَدْ

دَ الصَّبْرَ عَنِّي وَفَتَّ فِي عَضُدِي

وخوفي من الإطالة يمنعني من ذكر بعض رثائي في زوجتي وابنتي وأصدقائي..

ضربة موسيقية.....

- وقبل أن أعرّفكم بنفسي أقرّر حقيقة شعرية أخلاقية أساسية. لقد مدحتُ، أقول ذلك وأنا لا أشعر بالغضاضة أو الخجل. إنّ في وسع المرء أن يمدح على ألّا يقول إلّا حقاً. والعرف إن لم يذكر لصاحبه يئس الناس من فعل الشيء الجميل. لقد مدحتُ شكراً على نعمة أُسدِيت إليّ. وكان مدحي قليلاً. قلتُ فيه ما أنا حريّ بقوله من مثل أبيات قلتها في إسماعيل من بعضها:

فَاسْمَعْ مَقالَةَ صادِقٍ لَمْ يَنْتَسِبْ لِسِوَاكَ فـي أَدَبٍ وَلا تَهْذِيـبِ

أَوْلَيْتَهُ خَيْراً فَقَامَ بِشُكْرِهِ وَالشُّكرُ لِلإِحْسَانِ خَيْرُ ضَرِيبِ

فَاعْطِفْ عَلَيْهِ تَجِدْ سَلِيلَ كَرَامَةٍ أَهْلاً لِحُسْنِ الأَهْلِ وَالتَّرْحِيبِ

وبعد فأنا أزعم أنّ بعضكم لم يعرفني بعد. وإذن فأنا محمود سامي البارودي، شاعر من شعراء مصر في القرن التاسع عشر.

موسيقى النهاية.....